

موسى عليه السلام

ولادة موسى وتربيته

تمادى فرعونُ في غيِّه، وعلاً في الأرض، وأنزلَ الخسْفَ^(١) بطائفة من رعاياه هم بَنُو إسرائيل، إذ عاشوا في ظلاله عيشةَ البلاءِ، واصطبروا على اللاأواءِ^(٢)، وبينما هم يضطربون ويَزْحُون^(٣) في نكد من العيش وسوء الحال، إذ تقدَّم الكاهنُ من فرعون وقال له، يُولدُ مولود في بني إسرائيل يذهبُ مُلكك على يده، فثارت ثورته، وسدِر^(٤) في بُهتانه، وأمعن في غيِّه، فذبح أبناءهم واستبقى نساءهم، ولكنَّ قدرةَ الله تعالى تسامت أن يقف أمامها تدبير خائب، فقدَّر في قديم أزله لهؤلاء المستضعفين أن يرثوا مُلكَ هذا الطاغية الجبار على يد طفل يُربَّن في بيته، ولكنه كالورد ينبتُ من ثنايا الشوك، وكالفجر يدرُّج من مهد الظلام.

مكَّن الله لبني إسرائيل، وأورثهم أرض مصر والشام، وأرى فرعونَ وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون.

جلست (يوكابد) في ركنٍ من منزلها، وقد جاءها المَخاضُ، فدعت قابلةً لتهييء لها مثل ما يكون في هذه الحال، فعالجتها، فلما وقع موسى على الأرض، اضطربت نفسها، ولكن حُبَّهُ تغلغل في قلبها فحرصت على حياته، وجدَّت في البُقياء عليه، فلم يتسرب خبره إلى فرعونَ عدوِّ الأطفال، واستمرَّ ثلاثة من الشهور كذلك، حتى إذا نشر الملك عيونه في المدينة يتفحصون الأطفال ألهمَ الله أمَّ موسى أن تهيبَّ له صندوقاً تضعه فيه، ثم تُلقِي به في النيل، وترسل على الشاطيء أخته تقصُّ أثره، وتُلمِّم بخبره، بعد أن ثبتت فؤادها، وهذا رُوِّعها بقول كريم.

(١) أنزل الخسف بقومه: أذلهم.

(٢) اللاأواء: ضيق المعيشة.

(٣) رزح فلان: ضعف وزهد ما في يده.

(٤) سدر: تحير.

سارت أختُ موسى تقصُّ أثره، وما كان أشدَّ هَلَعِها حينما حُمِلَ الصندوق إلى فرعون، ولكن رحمةَ الله قريبٌ منه، فلم تكد تنظرُهُ امرأة فرعونَ حتى ألقى الله محبته في قلبها؛ فطلبت إلى زوجها أن يكون ابناً لها وله، وقد أصبح قلبُ (يوكابد) فارغاً من الهمِّ والإشفاق على وليدها، لأنها استودعته الله، وهي رابطةُ الجأش^(١)، ثابتةُ الإيمان.

وسِقت إليه المراضعُ، لعله يُقبل على واحدةٍ منهن، فيروي غلته، ويشبعُ جوعته، ولكنه عاف المراضع؛ فانبرى هامان، وقال: إن هذه الفتاة تعرفه، فخذوها حتى تخبرَ بحانه، ولما سئلت الفتاة قالت: إنما أردتُ أن أكون للملك من الناصحين، فأمرها فرعونُ أن تأتيَ بمن يكفله، وأقبل يحمل الطفل باكياً وهو يعلُّه حتى أقبات امرأة، فاستأنس بها الوليد، والتقم نُدَيها من دون النساء جميعاً.

فدهشَ فرعون وقال لها: من أنتِ؟ فقد أبى كلَّ نديٍ إلا نديك؟! فقالت أمُّ موسى: إنني امرأةٌ طيبةٌ الرِّيح، طيبةٌ اللبن، لا أوتى بصبيٍّ إلا قبلني. فدفعه إليها وأجرى عليها رزقاً، فرجعت إلى بيتها... وهكذا كافأها الله، فقرَّت عينها به، لتعلم أن وعد الله حق.

* * *

خروج موسى من مصر

أتمت (يوكابد) رضاعَ ابنها موسى، ثم أسلمتهُ إلى القصر الفرعونيِّ ليكون لهم عدواً وحزناً.

ولما بلغ أشدَّه واستوى، أوحى الله إليه بالنبوة، وآتاهُ العلم والحكمة. اتجهت أنظارُ المستضعفين المغلوبين إلى موسى، ليحْمِيَهُمْ مما أثقل كاهلهم من الظلم والآلام، وهؤلاء قومُه، وهو ذو النفس الكريمة التي أشربت عزةَ الله، واستنارت بنوره.

عاهد موسى نفسه على أن يكون لهؤلاء المظلومين نصيراً، وفيما هو يتجه نحو العاصمة الفرعونية، إذ وجد رجلين يقتلان، أحدهما عبريٌّ من مشاييعه، والآخر فرعونيٌّ من أصحاب القوة والسلطان، فسأله مظاهرهُ أن يحوِّلَ بينه وبين اعتداء الفرعونيِّ، فهمَّ

(١) الجأش: النفس أو القلب ويقال: رابط الجأش: ثابت عند الشدائد.

موسى فضرب الفرعونى فكانت القاضية؛ ثم ندم على فعلته، وعدّها من عمل الشيطان، واستغفر ربه على ما فرط منه، فغفر له ربه إنه غفورٌ رحيم.

ولقد كان الغفران نعمةً على موسى، وحافزاً لرحمته، وداعياً لسلامه، فاستعاذ بالله أن يكون ظهيراً^(١) للمجرمين! ولكن موسى تغلّبت عليه بشريته وانتصرت على حواسه طبيعة الإنسان فلم يُعلّق إرادته بإرادة مدبّر الأمر، ومصرف الكائنات، ولم يستثن مشيئة الله، فوقع فيما عزم على النجاة عن غوائله^(٢) إذ أصبح في المدينة خائفاً يترقب، فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه، فرماه موسى بالغواية والضلال، ولكنه اندفع مظاهرتة، فظن أن موسى يقصد قتله فتقدم إليه مسترحماً قائلاً: ﴿يَمُوسَى أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾^(٣).

فلم يكذ يسمع الفرعونى هذا الاتهام الصريح - وقد كان قومه في حيرة في أمر قتل الأمس، لا يعرفون قاتله - حتى وافهم وأخبرهم بخبر موسى؛ فتألب^(٤) القوم يبحثون عن موسى ليمزقوه شرّ ممزق، ولكن رحمة الله قريب، إذ جاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى، قال: يا موسى إن الملاء يأترون بك ليقتلوك؛ ثم نصحه بالخروج من المدينة إلى حيث يشاء رب العالمين.

* * *

موسى ينزل أرض مدين

خرج موسى من المدينة خائفاً يترقب، متّجهاً إلى أن يصرف عنه كيد الظالمين: سار ثماني ليال قاصداً بلاد مدين ولا معين له إلا عناية الله، ولا رفيق يؤنسه إلا نور الله، ولا زاد يحمله إلا زاد التقوى، مشى حافياً حتى تساقطت جلود قدميه، جائعاً لتكاد تترأى خضرة البقل من بطنه هزاً لا وضعفاً.

(١) الظهير: المعين.

(٢) الغوائل جمع غائلة: الفساد والشر.

(٣) سورة القصص، الآية: ١٩.

(٤) تألب القوم: تجمعوا وتساندوا.

ولم يكن له عن كل ذلك إلا عزاء واحد، هو غنيمته بالبعد عن فرعون وقومه، ونجاته بعيداً عن الرقباء والكائدين.

توجه إلى مدين، فوجد حشداً من الناس قد تزاحموا على مَوردِ ماء، كلٌّ منهم يعتمد على قدرته في التقدُّم والمسابقة إلى البئر، ورأى مِنْ دونهم امرأتين تفصلان أغنامهما، حتى لا تختلط بأغنام غيرهما في ضَعْفِ وذَلَّة، إلى أن ينكشف هذا الحشد، وينصرف الجمع، فتتقدما للسُّقيا.

ثارت في نفس نبي الله ثورة النَّصْفَة^(١)، وحماية المستضعفين؛ فتقدم وسألتهما: ما حَطَبُكما؟ قالتا: لا نسقي حتى ينصرف الرَّعَاءُ^(٢) حَذراً من مُزاحمة الرجال، وقد جئنا نسقي اضطراراً، لأن أبانا شيخٌ كبير لا ينهض؛ فما تأخر موسى عن نجدة الضعيفتين، بل سقى أغنامهما، وتولَّى إلى الظلِّ، ثم انطلق لسانه يسترحم ربَّ السموات، ويستدرُّ العطف؛ لأنه فقير محتاج.

بكرت الفتاتان بالرجعى إلى أبيهما الشيخ على غير عادة؛ فسألتهما الخبر، فأخبرتا، وقد استجاب الله استرحام موسى. فحنا عليه، إذ ألهم الشيخ أن يرسل في طلبه إحدى ابنتيه، فجاءته الفتاة مستحبة متخففة فقالت: ﴿إِنَّكِ أَيْ يَدْعُوكَ لِجَزِيكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾^(٣).

تبع موسى الفتاة إلى بيت أبيها استجابةً للدعوة، فنزل صندراً رخباً، وأنس حراماً آمناً؛ ثم قصَّ عليه قصصه، وأفضى إليه بمكنون سره، فطمأنه الشيخ، وقال: ﴿لَا تَخَفْ فَبَحَثَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٤).

* * *

موسى يصاهر الشيخ ثم يعود إلى وطنه

هدأت نفس موسى في منزل الشيخ الكريم، وسكنت إلى صُحبته، ولا بدع فنورُ

(١) النصفة: الإنصاف.

(٢) رعاء جمع راعي وهو من يحفظ الماشية ويرعاها.

(٣) سورة القصص، الآية: ٢٥.

(٤) سورة القصص، الآية: ٢٥.

الإيمان يتلألاً في كلا القلبين، وفيض الإخلاص يتفجر من كلا الرجلين، وشيئه الشيء منجذب إليه.

ولقد كان موسى كريماً فتياً، أثار في نفس الشيخ وبنّيته عوامل الإكبار والإعجاب، لما زانه الله به من طبع قويم، وخلق كريم؛ فتحرك في نفس الفتاة حب الاستظهار بموسى وقوته، والإبقاء عليه لطهارته وأمانته، فقالت: ﴿يَتَأَبَّتْ أَسْتَجِرُّهُ لِيَكْ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجِرَّتْ أَلْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾^(١).

أو ليس هو الذي ألقا الغطاء عن البئر منفرداً مع صعوبة حمله، على ما كان به من تعب وهزال؟ أو ليس هو العفّ الظاهر الذليل الذي أطرق برأسه حينما بلغته رسالة أبيها واستدعته إليه؟ فسار أمامها وسارت خلفه؛ وفاء لحقوق الطهارة وذمام المكرمات، وحتى لا تمتد عينه إليها فيكون من الخائنين.

مرّ حديث الفتاة إلى أذن أبيها، فلم ينبّه غافلاً، ولم يحرك ساكناً: بل كان صدى يرجع ما كان يجيش في صدر الشيخ من أمل ورجاء؛ أما وقد مزق التماس الفتاة حجاب السكوت، فقد استقر أبوها في مجلسه، ثم انبرى^(٢) يقول: يا موسى؛ إنني لراغب في أن أزوجهك إحدى ابنتي هاتين على أن تكون عوناً لي وظهيراً أجيئاً ترعى الغنم، وتقوم بنصرتي ومساعدتي ثماني حجج، وإن زدتها اثنتين فتلك منة جليلة أرجوها منك، ولا أحتمها عليك، وسأكون لك إن شاء الله من الأوفياء المخلصين.

ولقد كان موسى شريداً في بلاد مدين، ووحيداً طريداً، نائياً عن الأهل، قصياً عن الأخلاء، مستوحشة نفسه: فلم يكذ يسمع دعوة الشيخ حتى سرى أمل الحياة في نفسه مسرى الماء في العود، وانطلق لسانه يقول للشيخ: إنني لسعيد بصحبتك أيها السيد الكريم، قوي بمناصرتك، عزيز بمؤازرتك.

طاب مقام موسى، واخضر في حياته عود الأمل: فآتم أقصى الأجلين، يكلاً أمور الشيخ، ويدبر شؤونه برعاية الأمين الناصح الحكيم، وتم الزواج بإحدى الفتاتين، ثم

(١) سورة القصص، الآية: ٢٦.

(٢) انبرى: عرض.

وهب له صِهْرُهُ الكَرِيمَ أَعْنَامًا لَهُ خَالِصَةً سَائِغَةً؛ وَبَعْدَ ذَلِكَ تَحَرَّكَتْ فِي صَدْرِهِ نَشْوَةُ الْحَنِينِ إِلَى الْوَطَنِ، وَنَزَعَتْ نَفْسَهُ إِلَيْهِ، وَلَجَّ بِهِ الشُّوقُ وَالْهِيَامُ:

بِلَادٌ أَلْفَنَاهَا عَلَى كُلِّ حَالَةٍ وَقَدْ يُؤَلَّفُ الشَّيْءُ الَّذِي لَيْسَ بِالْحَسَنِ
وَتُسْتَعَذَّبُ الْأَرْضُ الَّتِي لَا هَوَىٰ بِهَا وَلَا مَأْوَها عَذْبٌ وَلَكِنهَا وَطَنٌ

جَمَعَ مُوسَى أَشْتَاتَ مَتَاعِهِ، وَهَيَأَ رَحْلَهُ، وَاسْتَعَدَّ لِيَذْهَبَ مَعَ زَوْجِهِ إِلَى مِصْرَ؛ فَوَدَّعَا الشَّيْخَ وَدَاعَا حَسَنًا، وَدَعَا لِهَمَا بِالتَّوْفِيقِ وَالسَّدَادِ، ثُمَّ سَارَا نَحْوَ الْجَنُوبِ، حَتَّى طَوَّرَا سِينَاءَ^(١)؛ وَهَنَّاكَ ضَلَّ مُوسَى الطَّرِيقَ، فَحَارَ فِي أَمْرِهِ، وَالتَّوَى عَلَيْهِ قَصْدُهُ، وَلَكِنَّ عَنَايَةَ اللَّهِ لَاحِظَتُهُ، فَلَمْ يَخْبُ ضِيَاؤُهُ، وَلَمْ يَنْطَفِئْ رَجَاؤُهُ.

وَإِذَا الْعَنَايَةُ لَاحِظَتَكَ عَيُونُهَا نَمُّ فَالْمَخَافُ كُلُّهُنَّ أَمَانٌ

سَارَ مُوسَى غَيْرَ بَعِيدٍ، فَأَبْصَرَ مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي تَلِي الطُّورَ نَارًا، فَحَطَّ رِحَالَهُ، وَأَسْرَعَ وَحْدَهُ إِلَى النَّارِ بَعْدَ أَنْ قَالَ لِأَهْلِهِ: ﴿أَمْكُثُوا إِنِّي ءَأَنْسَتْ^(٢) نَارًا لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبْرٍ أَوْ جَدْوَةٍ^(٣) مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾^(٤) ﴿٤﴾^(٥).

فِي شَاطِئِ الوَادِي الْأَيْمَنِ، فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ، فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْمَسْفِرَةِ الضَّحِكَةِ، بَسَمَ الزَّمَانَ لِنَبِيِّ اللَّهِ الْكَرِيمِ، فَنُودِيَ: ﴿أَنْ يَكْمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦) فَكَانَتْ بَدَأَ نَبْوَتِهِ، إِذْ خَصَّهُ اللَّهُ بِكَرَامَتِهِ، وَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، وَهَنَّاكَ سَمِعَ نِدَاءَ اللَّهِ الْكَرِيمِ: ﴿وَمَا تَلَكَ يَمِينِكَ يَكْمُوسَىٰ﴾^(٧) فَعَجَزَتْ قَدْرَتُهُ الْبَشَرِيَّةُ أَنْ تَسْمُوَ إِلَى سِرِّ الْإِبْدَاعِ فِي السُّؤَالِ الْكَرِيمِ، فَأَجَابَ كَمَا يَجِيبُ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا

(١) الطور في كلام العرب: الجبل. وبالقرب من مصر عند موضع يسمى مدين جبل يسمى الطور. وبلسان النبط: كل جبل يقال له طور فإذا كان عليه نبت وشجر قيل طور سيناء. والطور: جبل بعينه مظل على طبرية.

(٢) أنس: أبصر من بعيد.

(٣) الجدوة: قطعة وشعلة.

(٤) تصطلون: تستدفنون.

(٥) سورة القصص، الآية: ٢٩.

(٦) سورة القصص، الآية: ٣٠.

(٧) سورة طه، الآية: ١٧.

عَلَيْهَا وَأَهْتَسُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَثَارِبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾^(١)، ظناً أن المقصود أن يذكر خصائص العصا، ومنافع العصا. . . تسامت قدرة الله، وتعالى سبحانه علوًا كبيراً، فلم يكن السؤال إلا تمهيداً لتبيان ومقدمة لإعلان!

سأل الله عن حقيقة العصا؛ حتى إذا رأى موسى بعد ذلك فيها خوارق، واستبان عندها معجزات، على أن في ذلك آيات بينات، وحُجَجاً^(٢) صادقات، خصه بها رب السموات، تمييزاً لرسالته وتقوية لدعوته.

فكم طابت به للحق نفس بحبل الله تعصمُ اعتصاماً

أمر موسى أن يلقي عصاه فألقاها، فإذا هي حية تسعى؛ نمت وعظمت حتى غدت في جلادة الثعبان، وضخامة الجان^(٣)، لمحها موسى فخاف وهرب، فسمع نداء العلي العظيم: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾^(٤).

حقّت نبوة موسى، واطمأنت نفسه لنداء الله الكريم، وقرت عينه بنور الحق الواضح، فتوجهه ربّه بمعجزة أخرى، إذ أمره فأدخل يده في جيبه^(٥)، فإذا هي بيضاء من غير سوء.

كانت هاتان المعجزتان لموسى نبي الله الكريم أمراً له ما بعده، جعلهما الله تشبيهاً لقلبه، وتمكيناً لرسالته بين فرعون وقومه، وتهيئة للمناداة بالحق، فرفع صوته عالياً، وشهر سيفه قاطعاً، ليمزق به حجب الزيف والضلال.

* * *

موسى الرسول

عاش فرعون وأعوانه في بلاد النيل، يحكمون القبط وبني إسرائيل، ويفسدون في

(١) سورة طه، الآية: ١٨.

(٢) الحُجَج جمع حُجة: الدليل والبرهان.

(٣) الجان: ضرب من الحيات أكحل العينين يضرب إلى الصفرة.

(٤) سورة النمل، الآية: ١٠.

(٥) جيب القميص ونحوه: ما يدخل منه الرأس عند لبسه.

الأرض ظلماً واستكباراً، ويتخذون من نفوسهم أرباباً، مصورين من طبيعتهم البشرية الناقصة آلهة يفرضون على السوقة عبادتها من دون الله، ثم هم بعدُ قد أنزلوا الخسف ببني إسرائيل، وساموهم سوء العذاب، وأتعبوهم في العمل، وأطفئوا أمامهم سُرُج الأمل، فكانوا تحت أيديهم من سقط المتاع.

وأوغلوا في شهواتهم، وانصرفوا عن نور الإيمان، وانحسرت نواظرهم عن سُبُل الهداية، فحادوا عن الطريق المستقيم.

وقومٌ في الضلالة قد تهاوؤا أليسوا بالرسالة يُرحموناً؟

إذن فلتفض رحمة الله، ولتتفجر ينابيع عدله وكرمه، وليكن أرحمَ بهؤلاء القساة الجناة من أنفسهم، فيهيء لهم مدارج النور، ويفسح أمامهم طريق الهداية، ويُنيرَ مفاوز^(١) الظلمات.

نادى الله موسى: أن لديك برهانان من ربك إلى فرعون وملائته، ويعزز الله بهما كلمتك، ويُعلي حجتك، فاذهب إلى هؤلاء حتى تخرجهم من الظلمات إلى النور، وترفعَ عدماً يخفق في بلاد النيل، فينبلج نور الرشاد، ويتوارى غلس^(٢) الضلال.

سمع موسى دعوة الله، وتهياً لتلبية النداء الكريم؛ وهو وإن يكن ربط الله بالإيمان قلبه، ووثق بالبراهين دعوته؛ فأراه حجتين بهما يتقوى ويشتد، ويساجل ويناضل، ويعزز كلمة الله أمام فرعون وقومه - إن يكن له كل ذلك فإن لدى موسى ثأراً قديماً لفرعون، فهم يطلبونه منذ أمد، وهو قد أمعن في الهرب، وفارق الأهل والوطن، إنجاءً لنفسه، وطلباً للسلامة من أقرب الأبواب. وهو كذلك وإن جاشت في نفسه نزعة الحنين إلى الوطن، واختلجت في فؤاده عواملُ الشوق والشجن^(٣)، لا يزال يجد أمام الأمل سُدّة^(٤)، فيغض الطرف عن هذا المطلب البعيد المنال، أما وقد دعاه الله وهياً لرسالته؛ فقد آن له أن يتقدم حيث أحجم، وأن تنبعث آماله حرة طليقة بعد أن حبسها وحال دونها الخوف والحرمان.

(١) مفاوز جمع مفازة: المهلكة.

(٢) الفليس: ظلمة آخر الليل.

(٣) الشجن: الهم والحزن.

(٤) السدة: باب الدار.

فاضت الضراعة من قلب موسى إلى ربه، فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّي قَنَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ (١)، قال قَوْلته ليطمئن قلبه، وليشرف قدره، ويعظم جاهه، فينفضه ربه بقول كريم، يُنير في قلبه مصابيح الرجاء، ويفسح أمامه مسالك الأمل، ويُنلج خاطرَه، ويهدئ روعه، ويؤمِّن نفسه.

أمر موسى أن يذهب إلى فرعون؛ فتهيب الموقف، واستعظم الأمر، وهو الذي لا يكاد يُبين عن آيات الهدى، ودلائل الحق، لأنها فياضة زاخرة، تمتلئ بها مشاعره، وتجيش بها خواطره، وتملك عليه عقله وقلبه، وهو لا يملك أن يكون قويّ التعبير، رصين الحجّة، مُفوّه المنطق، سرّي (٢) البيان، لأن شأنه شأن خطير، وأمره أمر كبير؛ فدعا ربه فقال: ربّ اشْرخ لي صدري، حتى يفسح لتحمل أعباء هذا الأمر العظيم، ويسر لي أمري برفع الموانع والصعاب، واخلل عُقدة من لساني أكن ناصح البيان، سديد البرهان، حتى ينفذ بلاغي إلى نفوسهم، ويتسرب إلى قلوبهم، واجعل لي شريكاً وزيراً (٣) من أهلي، هو هارون أخي، أشدّد به أزرِي، وأشركه في أمري.

أجاب الله دعاء نبيّه الكريم، تدعيماً للدعوة، وتكريماً لرسوله، وتنبهياً لشأن الحق، فألهم هارون - وقد كان بمصر - أن يذهب إلى حيث يقيم موسى أخوه، ليشركه في أمره، ويحمل معه أعباء هذا الأمر الخطير، فلبى هارون داعي الحق، وسار فقابل أخاءً بجانب الطور الأيمن.

إذن قد اطمأن موسى، وتقوى ظهره، وآتاها الله سُؤله.

أوحى الله إلى موسى وأخيه: أن اذها إلى فرعون، فقولاً له قولاً ليناً، أرفق بنفسه، وآلف قلبه، عسى أن تلين قسوته، وتخضع سطوته، فلا تحمله حماقتُه على أن يسطو عليكما؛ ولتسدّ أمامه منافذ التمحل والاعتذار؛ وعسى أن تكون دعوتكما ليّنة رقيقة، فلا تفجعه في سلطته، ولا تصدمه في عزته.

ومن أولى من رب السماء والأرض بأن يعلم الأدب، ورقة العبارة، وسمو

(١) سورة القصص، الآية: ٣٣.

(٢) السري: الشريف.

(٣) الوزير: خاصة الملك الذي يحمل ثقله ويعينه برأيه.

الحس، وحسن المعاملة؟ ومن أحسن قولاً ممَّن دعا إلى الله وعَمِلَ صالحاً؟
أليست لفرعون على موسى حقوق التربية؟ فمن حقه عليه ملاينة في القول، ورقة
في الأسلوب.

فأوحى الله إليه: يا موسى: اذهب أنت وأخوك بآياتي إلى فرعون وقومه، وتدرجاً
معه في الدعوة، فقولاً: إنا رسولا ربك، وادعوا له ليخلص بني إسرائيل مما هم فيه من
ظلم وإيلام^(١).

ذهب موسى وأخوه إلى مصر، فأتيا فرعون، فاستهان بهما، واستنكر خطبهما،
فقال: حتى أنت يا موسى! ﴿الْمُرْتَبِكُ فِينَا وَلِيدًا^(٢) وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عَمْرِكَ سِينِينَ^(٣)﴾.
فقال موسى: أتمنُّ بتربيتي لديك وليداً فتحسبها نعمة؟ أليس منشؤها ظلمك
واستعبادك لبني إسرائيل؟

فانطلق فرعون قائلاً: وكذلك فعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الجاحدين بنعمتنا
ودحض موسى حجته، وردَّ دعوته، فقال: بل فعلتها إذا وأنا من الضالين، ولما خفتُ
بطشكم فررت منكم، فأصابتني نعمة الله ورحمته، فوهب لي علماً وحكمة، وجعلني من
المرسلين.

حينئذٍ استغلق باب النقاش أمام فرعون، فعمد^(٤) إلى طريق آخر، واهماً أن به
نصفته، وفيه سلامته، فقال: وما رب العالمين؟! فقال موسى: إن أيقنت حقيقة الأشياء
وأدركت وجودها وآثارها، فاللهي ربها، رب السموات والأرض وما بينهما.

فتميز^(٥) فرعون غيظاً، وراح يُشير سخيمة^(٦) من حوله، ويبعث دهشتهم وعجبهم
واستنكارهم، فقال: ألا تسمعون؟! أسأله عن حقيقة ربه فيذكر لي أفعاله!!

(١) ألمه إيلاماً: أوجعه.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٨.

(٣) وليداً: صغيراً قريباً من الولادة بعد الفطام.

(٤) عمد: قصد.

(٥) تميز من الغيظ: تقطع.

(٦) السخيمة: الحقد والضغينة.

فقال موسى: رَبِّي رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُومَ تَعْقِلُونَ﴾ (١).

فثار فرعون، واضطربت نفسه، ولجَّ في غضبه، وزاد غيظه، وعجزت حُجَّتُه فلجأ إلى حيلة المُحْتَقِّ الموتور، وعمد إلى قُوَّته، وقال: ﴿لَئِن أَخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ (٢).

لم يُبَالِ مُوسَى، واطمأنَّ لدعوته، وانبعث لسانه بدفء الأمل، فقال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتَنَا بِسِحْرِ الْمُشْرِكِينَ لَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (٣) حجة دامغة، ومعجزة قاطعة، تُزِيلُ عَنْكَ الرِّيبَ وَالشُّكُوكَ؟ فقال فرعون: إِذْنُ فَاتٍ بِهَا إِنْ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ.

* * *

معجزات موسى

كان موسى قَوِيَّ الظَّهْرِ مَسَدَّدَ الْخَطَا، يَسْتَمُدُّ الْعَوْنَ وَالتَّوْفِيقَ مِنَ اللَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ، وَكَانَ السِّحْرَ فَنًّا ذَاغَ فِي بَنِي مِصْرَ أَمْرُهُ، وَاشْتَهَرَ شَأْنُهُ، فَظَهَرَ مِنْهُمُ السَّاحِرُ الَّذِي يَخْلِبُ الْعُقُولَ، وَيَسْتَرِقُّ الْفُؤَادَ، وَيَلْعَبُ بِالْأَلْبَابِ لِعِبِّ النَّكْبَاءِ (٤) بِالْعُودِ، بِرِعْوَا فِي هَذَا الْفَنِّ وَأَتَقَنُوهُ، فَلَيْسَ يُبَارِيهِمْ سَابِقَ، وَلَا يَبْلُغُ شَأْوَهُمْ لَاحِقَ.

وَمِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ وَحَدَّهَا شَاءَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ أَنْ يُعْجِزَ الْقَوْمَ، وَأَنْ يَقْفَهُمْ دَهْشِينَ ذَاهِلِينَ، إِذْ تُصَوِّبُ سَهَامَهُمْ إِلَى نَحْوَرِهِمْ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا، وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ.

تِلْكَ حِكْمَةٌ أَرَادَهَا اللَّهُ، فَأَجْرَى الْمَعْجِزَةَ عَلَى يَدِ نَبِيِّهِ مُوسَى، تَحَاكِي ذَلِكَ النُّوعَ الَّذِي بَرَعَ فِيهِ الْقَوْمَ، حَتَّى يُفْرِعُوا كُلَّ كِنَانِهِمْ (٥)، وَيَسْتَنْفِدُوا كُلَّ جُهُودِهِمْ، فَإِذَا عَجَزُوا فِي مَحَطِّ سَبْقِهِمْ، وَغَايَةِ بَرَاعَتِهِمْ فَهَمَّ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ أَعْجَزَ وَحَيْثُ نَزِدَ فَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعَلِيَا، وَكَلِمَتُهُمْ هِيَ السُّفْلَى، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ.

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٩.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٣٠.

(٤) النكباء: ریح انحرقت ووقعت بين ريحين الصبا والشمال.

(٥) الكِنَانَةُ: جعبة صغيرة من جلد توضع فيها السهام.

ألقى موسى عصاه التي أودعها الله القُوَّةَ الخارقة، فإذا هي ثعبانٌ مبین! شدِّه فرعون، وتملكه مزيج من الكبرياء والحيرة، ثم قال: هل من غيرها؟ ظانًّا بأنَّ ذلك نهاية الشوط، وأن موسى لا بدَّ عاجز؛ ولكن الرسول أدخل يده في جيبه ثم نزعها، فإذا شعاع ينبعث منها يكادُ سنًا^(١) بَرِّقه يأخذُ بالأبصار، ويذيعُ وينتشرُ حتى ليكاد يسدُّ الأفق.

بعد ذلك ضاقت مسالكُ القوم أمام فرعون، وغشَّيه همٌّ واكتئاب، ولجَّ به حرصُهُ على مُلكه وجبروته، وبهره سلطان المعجزة، فأنزله من عليائه، وصغَّر شأنه في عين نفسه، فنسي أنه ربُّهم الأعلى، وأنه ما علم لهم من إلهٍ غيره! ثم عمد إلى التمسح في أذيال قومه، ومداهنتهم^(٢)، فأشركهم في الأمر، وتبادل معهم المشورة والرأي، وتقدم لمؤامرتهم، وتنفيرهم من موسى، مُلبسًا الباطل ثوب الحق، والخديعة والتدليس^(٣) ثوب الصراحة والحقيقة، فقال: يا قوم، هذان ساحران يريدان أن يخرجكما من أرضكم بسحرهما، فما ترون؟ فقال أنصاره وحواشيه احبسهما وابعث رجالك في المدائن يأتوك بكل ساحرٍ عليم.

صادف هذا الرأي هوى في نفس فرعون، وهو الذي يتعلَّق بخيوطِ واهية، ويستمسك بالأمل الكاذب، ويستند على أوهم أساس، لعلَّ فيه الخلاص والنجاة.

فجدَّ في جمع السَّخرة من كل مكان، كلُّ ذلك والهواجس والوساوس تتنازع نفسه، خوفًا على صَوْلته^(٤)، وفرقًا^(٥) على دولته؛ إذ قال لموسى في نكرانٍ ودهشٍ: ﴿أَجِئْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾^(٦).

ما بال فرعون اضطرب وجزع، وتقطعت نفسه وهلع! أليس هو الإله المتجبر؟! أو ليست له قدرة وكرامة؟! إنه أمام تلك القُوَّة الخارقة التي أجراها ربُّ الأرباب على يد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق!

(١) سنا البرق وغيره: أضاء.

(٢) داهن مداهنة: أظهر خلاف ما أضمّر.

(٣) التدليس: الإخفاء وإظهار عكس الحقيقة.

(٤) الصولة: السطوة.

(٥) فرَّق فرقًا: جزع واشتد خوفه.

(٦) سورة طه، الآية: ٥٧.

قال فرعون لموسى: ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾^(١). قال موسى: موعدكم يوم العيد، يوم اجتماع الناس وزيتهم، حتى يشيع الحق، وينبج انبلاج النهار.

جدّ فرعون واجتهد، وجمع السحرة، وأتى بهم في ذلك الزمان وهذا المكان، تتمشى في نفسه بقية من الأمل، ورغبة شديدة ملحة من الحرص والسلطة، يدفعانه دفعاً إلى مساجلة موسى والقضاء على دعواه، ولكن هيهات أن يدنس الشمس غباراً ثائراً، أو يحط من قدر العدالة سلطان جائر:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى^(٢) قرنه الوعل^(٣)
 تلفت موسى فوجد حشداً هائلاً من السحرة، فقال لهم: الويل لكم إن افترتكم الكذب على الله، فدعوتهم معجزاته سحراً، ولم تصارحوا فرعون بالنور الساطع، والحق القاطع، فظهروا له ما بين سحركم وإعجازي، وتفرقوا بين باطلكم وحقي، من احتال منكم ليُطِلَّ حقاً، أو يُحق باطلاً فقد خاب، وباء بالخسران الممين.

كان كلام موسى نداءً الحق رنّاً في آذان الساحرين، فأفاقهم من غشية الضلال، وأزال عن أفئدتهم حلك المحال^(٤)، وفتق أغشية قلوبهم لتُصيح لدعوة الحق، ولتستبين طريق الرشاد.

اتتمر السحرة بأمر فرعون، لم يتخلف واحد منهم، فإذا بهم آلاف، مع كل واحد منهم حبلٌ وعصا، مقبلين إقبال رجل واحد، ومشمّرين عن سواعدهم، ليكون ذلك أدمى إلى تسرب الخوف إلى موسى وأخيه، وبثّ المهابة في نفوس الرائين.

نادى فرعون في قومه، حائثاً لهم على الإسراع والبدار^(٥) ليشهدوا ذلك الحفل العظيم، ساعة الضحى من يوم العيد، يوم يتبارى القرنان، ويتساجل^(٦) الخصمان.

(١) سورة طه، الآية: ٥٨.

(٢) وهن: ضعف.

(٣) الوعل: تيس الجبل وهو جنس من المعز الجبلية له قرنان قويان منحنيان كسيفين أحديين.

(٤) المُحال من الكلام: ما عدل به عن وجهه.

(٥) بادر بداراً: أسرع.

(٦) تساجلوا: تباروا.

جاء الناس مدفوعين بالرجاء في نصرة الساحرين، لِمَا رَسَخَ فِي نَفُوسِهِمْ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَرَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجَهَالَةِ، فَسَلِبَهُمْ سَلَامَةَ التَّقْدِيرِ، وَصَحَّةَ التَّصْوِيرِ.

أَقْبَلَ السَّحْرَةَ مُدْلِينَ بِعِلْمِهِمْ، مَزْهُوِّينَ بِغُرُورِهِمْ، وَكَيْفَ لَا يُدِلُّونَ وَيُعْجَبُونَ وَهُمْ فَوَارِسُ الْمِيدَانِ، وَجِيَادُ الرَّهَانِ، وَمَنَاطُ الْأَمْلِ، وَمَحَطُّ الرَّجَاءِ؟

قَالُوا لِفَرْعَوْنَ: أَلَنَّا أَجْرٌ إِنْ غَلَبْنَا؟ فَقَالَ: لَكُمْ أَجْرٌ وَقُرْبَى! تَنْعَمُونَ فِي حِمَايَ، وَتَسْعَدُونَ بِجَوَارِي، وَتَنْزِلُونَ مَوَارِدَ الرِّفَاعَةِ^(١) وَالتَّرْفِ وَالنَّعِيمِ؛ لِأَنَّكُمْ تَشْدُونَ أَرْزِي، وَتَقْوُونَ ظَهْرِي.

فَاطْمَأَنَّ السَّحْرَةَ لِهَذَا، وَدَارَتْ بِرُؤُوسِهِمْ كَثُوسُ الْأَمْلِ؛ فَأَقْبَلُوا مَدْفُوعِينَ، ثُمَّ قَالُوا: يَا مُوسَى، إِمَّا أَنْ تُلْقَى، وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ الْمَلِكِينَ.

فَلَمْ يِيَالِ مُوسَى سِحْرَهُمْ، وَاسْتَخَفَّ بِخَطْبِهِمْ، وَأَذِنَ لَهُمْ بِأَنْ يُلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ، حَتَّى يَسْتَنْفِدُوا أَقْصَى وَسْعِهِمْ، وَيَفْرَعُوا غَايَةَ جَهْدِهِمْ، ثُمَّ يُظْهِرَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ، فَيَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَكْذِمُهُ.

تَقَدَّمَ السَّحْرَةَ وَأَلْقَوْا مَا فِي أَيْدِيهِمْ؛ فَخَيَّلَ لِمُوسَى أَنَّهَا حَيَاتٌ عَلَى الْأَرْضِ تَسْعَى، وَلَكِنَّهُمُ وَهْمٌ تَسْلُلُ إِلَى خَلِجَاتِ نَفْسِهِ حَذْرًا وَخَوْفًا أَنْ يُؤْخَذَ النَّاسُ بِهَذَا الظَّاهِرِ الْمَمُوءِ، وَالْبَاطِلِ الْمَشْوَاهِ؛ فَيَنْصَرِفُوا عَنِ دَعْوَتِهِ مَدْبِرِينَ، وَلَكِنْ حَمَاهُ اللَّهُ وَرَعَاهُ، فَقَالَ: لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى، وَلَا تَحْفَلْ^(٢) بِكَثْرَةِ هَذِهِ الْأَجْرَامِ وَعَظْمِهَا؛ فَإِنَّ الْعُوَيْدَةَ الَّتِي فِي يَدِكَ أخطرُ شَأْنًا وَأَعْظَمُ أَثْرًا، فَأَلْقِهَا فَإِنَّهَا بِقُدْرَةِ اللَّهِ تَبْتَلَعُ مَا افْتَعَلُوا وَزَوَّرُوا، وَمَوْهُوا وَضَلَّلُوا، فَمَا كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا كَيْدُ سَاحِرٍ، وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى.

هَدَأَتْ حَصَاةُ مُوسَى، وَأَلْقَى عَصَاهُ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ^(٣) مَا يَأْفِكُونَ^(٤)، فَإِذَا السَّحْرَةُ يَلْمَسُونَ الْحَقِيقَةَ الرَّائِعَةَ، وَيَتَبَيَّنُونَ الرُّشْدَ مِنَ الضَّلَالِ، وَالْحَقَّ مِنَ الْمَحَالِ، فَإِذَا هُمْ يَخْرُونَ سَاجِدِينَ، تَوْبَةً عَمَّا صَنَعُوا، وَخُشُوعًا لِهَيْبَةِ الْحَقِّ، وَإِكْبَارًا لِذَلِكَ الْأَمْرِ الْخَطِيرِ.

(١) الرِّفَاعَةُ: سَعَةُ الْعَيْشِ وَخَصْبِهِ.

(٢) حَفْلُ الشَّيْءِ: عَنِي بِهِ وَبَالِي.

(٣) لَقَفَ الطَّعَامَ: بَلَعَهُ، تَلَقَفَ: تَبْتَلَعُ.

(٤) يَأْفِكُونَ: يَكْذِبُونَ وَيَفْتَرُونَ.

غلت مراجل^(١) الحقد والحفيظة في صدر فرعون، واحتدم غيظُهُ لتلك المفاجأة الغريبة التي فجأته، مستطيرة الشرر، شديدة الضرر، على حين كان يرجو من ورائها تقوية لسلطانه، وتدعيماً لبهتانه، فإذا هي عاصفةٌ هوجاءٌ تُقَوِّضُ^(٢) ذلك العرش الذي أسَّسَ على الزور والبهتان.

لم يجد فرعون في كنانته إلا أن يُشْبِعَ نَهْمَ غيظه، ويستر مرارة خَجَلِه، فقال: أتؤمنون له، وتخضعون لحكمة قبل أن آذن لكم؟ أليس في ذلك اتفاق مقرر، ورأي مدبر؟ حقاً إنه لأستاذكم، وكبيركم الذي علمكم السحر؛ فاتفقتم معه على فعلكم، أما وقد أقدمتم على ذلك، وخرجتم على حدود طاعتي، ونقضتم حبال عهدي، فلا قَطْعَنَّ أَيْدِيكُمْ وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنتكم في جذوع النخل، عقاباً لكم، وتمثيلاً بكم، لأنكم كفرتم بنعمتي، ونقضتم ميثاقي، ولتُعرِّفَنَّكم أيامُ الزمن قوة بأسِي، وشدة عذابي.

ولكنَّ قوة الإيمان، وفيض النبوة ربطا على قلوب هؤلاء المؤمنين؛ فأزال الله عن قلوبهم غشية الباطل وغمرة البهتان، ودرجوا قُدماً نحو الصراط المستقيم؛ فقالوا لفرعون: ليس في سبيلك خير، ولا في رضاك أجر، فلن نختارك على ما جاءنا من نور ساطع وحق قاطع، فأوغل في وعيدك، وأكثر من تهديدك، فما أنت إلا عَوِيٌّ مُضِلُّ مُبِين: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَعْرِفَ لَنَا خَطِينًا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾^(٣).

* * *

عناد فرعون

شُدِه فرعون لما رأى من سحر موسى - كما يسميه - وانطلق تتنازعه عاطفتان جامحتان: أقواهما الإبقاء على ملكه، ومجاهدة موسى حتى تنجلي غاشية ظلامه، وتنكشف سحابة غمته، فيستتب لفرعون المصير، وكيف لا يناضل عُتْل^(٤) جبار في سبيل هذه العزة الشامخة والثروة العريضة؟ إنه لمضطرّ تحت نزعات هذه النفس الكافرة أن يدافع

(١) مراجل جمع مرجل: القدر من الطين المطبوخ أو النحاس ويقال جاشت مراجله: اشتد غضبه.

(٢) قاض الجدار: تهدم وانهاه.

(٣) سورة طه، الآية: ٧٣.

(٤) العُتْل: الشديد من كل شيء، ويقال: رجل عتل: جاف غليظ.

ويجادل حتى يَدْحَرَ^(١) ذلك الخارج على سلطانه، أصرَّ فرعونُ على عناده، وظاهره الملاء من قومه، فقالوا: ﴿أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾^(٢)، فتغالى في بطشه وعُنفوانه، واستطار شرره وبهتانه، فقال: إنا سنقتل أبناءهم ونستحيي^(٣) نساءهم. ثم راح ينزل بهم صنوف الظلم وألوان الأذى؛ فضجُّوا لاجئين إلى موسى، ليحميهم من أذى الكافر الجبار، وقالوا: يا موسى، لقد أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا. فسكَّن الرسول ثورتهم، وهدأ روعهم، ومناهم الخير والنجاة قائلاً لهم: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤).

قال موسى هذا، واستمرَّ في دعوته يمهدُّ لقومه سبيل النجاة، ويتجهُ إلى ربه بقلب ثابت، وإيمان موثوق، واطمئنان موفور.

أما فرعون فقد خلص إلى ملاء من قومه يأتمرون بموسى ليقتلوه؛ فذلك أقرب طريق أمامهم، وأدنى السبيل لبقاء ملكهم، بعد أن أعيتهم الحيل، وسدَّت أمامهم منافذ الخلاص، وبينما هم في أخذٍ وردٍّ، يقلبون أوجه الرأي، ويجيلون الفكر في الإقدام على جريمة القتل، إذ دفعت المروءة والشجاعة رجلاً أثار الله بصيرته، وكشف له سبيل الرشد والإيمان، فدافع عن موسى أشدَّ الدفاع، وناضل عنه وجادل، وبين لهم سوء أمرهم، وعاقبة تدبيرهم، وفنَّد حُججهم، وزيف ضلالهم، وطفق يضرب المثل، ويتقوى بالحجج. فقال: يا قوم ﴿أَنْقَلْتُمْ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّبَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾^(٥).

ثم طفق مؤمنٌ آل فرعون يذكرهم ببأس الله وبطشه، فقال: ﴿يَقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ وَلَا تَقْرَبُوا مَنَاقِبَهُمْ فَدَحَاكُمْ عَنْ يَمِينِهِ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَاذِبِينَ﴾^(٦)، مثل دأب قوم نوح وعاد وتمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظناً

(١) دحره دحوراً: دفعه وأبعده وطرده.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

(٣) نستحيي: نستبقيهم أحياء.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.

(٥) سورة غافر، الآية: ٢٨.

(٦) الأحزاب: أي يوم حزب بعد حزب.

لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمٍ إِتِيَّ آخَافٌ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ (١) يَوْمَ تُولُون مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ (٢).

ولكن القوم - على الرغم من قوة عارضته - قاوموه وكذبوه، ليلجئوه إلى صفهم ورأيهم، فقال: ﴿ وَيَقَوْمٍ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَرِيزِ الْغَفْرِ ﴿٤٢﴾ لِأَجْرَمِ (٣) أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَآتَى الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ (٤).

ضاق القومُ ذرعاً بهذا الرجل الذي فجأهم برأيه، وسقاه أحلامهم بهديه؛ فناووه (٥) وسقوه، وهموا به ليقتلوه، فوفاه الله سيئات ما مكروا، وحق بال فرعون سوء العذاب.

استمر موسى في دعوته، لا يئنيه وعيدٌ، ولا يخيفه تهديد، يدعو فرعون إلى الإيمان بربه، والرُّجعى إلى خالق الأرض والسموات، وأن يطلق معه بني إسرائيل، ولكن هذا كان شديداً كل الشدة على ذلك الطاغية الجبار؛ فاشتط في غوايته، وظل في جهالته، وجمع أشتات الزائعين من قومه الذين ألفوا الذلة، وارتضوا عيش الهوان والاستعباد، جمعهم يريد أن يبهرهم بالقوة، ويثبتهم على الكفر والمذلة، ونادى في قومه، قال: ﴿ يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُيبِينَ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْفِي عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقَرَّنِينَ ﴿٥٣﴾ (٦).

وهؤلاء هم أذناب شره، وعمد زبغه وظلمه، قد أطاعوه، إنهم كانوا قوماً فاسقين.

(١) يوم التناد: يوم القيامة.

(٢) سورة غافر، من الآية: ٣٠ إلى الآية: ٣٤.

(٣) لا جرم: حقاً.

(٤) سورة غافر، من الآية: ٤١ إلى الآية: ٤٣.

(٥) ناووه: عادوه.

(٦) سورة الزحرف، من الآية: ٥١ إلى الآية: ٥٣.

لم يَبْقَ فِي قَوْسِ الصَّبْرِ مَنْزَعٌ، وَلَا لِحْجَةِ الْمَبِينِ مَوْعٍ، بَعْدَ أَنْ عَتَا فِرْعَوْنَ عَتْوًا كَبِيرًا، وَسَدَّ مَسَالِكَ الْقَوْلِ بِيَهْتَانِهِ، وَأَنْكَرَ الشَّمْسُ فِي وَضْحِ النَّهَارِ، بَلْ إِنَّهُ قَدْ اسْتَمَرَّ يَذِيْقُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْوَاعَ الْمَذَلَّةِ وَصَنُوفِ الْهَوَانِ؛ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى أَنْ يُعْلِنَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ بِأَنَّ اللَّهَ لَا بُدَّ مُذَيِّقُهُمْ جَزَاءَ كُفْرِهِمْ وَحَسْبِهِمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِنَقْصِ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمْرَاتِ، فَغَضِبَ مَعِينُ النَّيْلِ، وَغَاضَ مَاؤُهُ، وَقَلَّ غَنَاؤُهُ، وَقَصُرَ عَنِ إِرْوَاءِ أَرْضِهِمْ؛ فَتَقَصَّتْ ثَمَرَاتُهُمْ، وَذَوَى عَوْدُ خَيْرِهِمْ؛ ثُمَّ أَغْرَقَهُمُ الطُّوفَانُ مِنْ مَطَرِ السَّمَاءِ، فَأَضْرَبَ بِمَا بَقِيَ مِنَ الزَّرْعِ وَالضَّرْعِ، ثُمَّ زَحَفَ عَلَيْهِمْ جِرَادٌ أَكَلَ الثَّمَارَ وَالْأَزْهَارَ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْقُمَّلُ، فَأَقْضَى مُضَاجِعَهُمْ، وَأَقْلَقَ رِقَادَهُمْ؛ وَابْتَلَوْا بِالضَّفَادِعِ، فَغَضَّتْ عَيْشَهُمْ، وَاحْتَشَدَ جَمْعُهَا فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ وَبَيْنَ مَلَابِسِهِمْ، وَسَلَطَ عَلَيْهِمُ الرُّعَافُ مِنْ آفَاتِهِمْ، ثُمَّ مَحَقَ اللَّهُ أَمْوَالَهُمْ وَأَهْلَكَهَا جَزَاءَ خَطِيئَاتِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ﴿١﴾ وَكَمَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرَّجْزُ^(١) قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيَكُنْ كَشَفْتِ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴿٢﴾.

كشَفَ اللَّهُ عَنْهُمْ هَذَا الْبَلَاءِ، لِيَمْهَدَ لَهُمْ سَبِيلَ الْخِلَاصِ مِمَّا نَزَلَ بِهِمْ، وَلِيَقْوَى بِحِكْمَتِهِ الْحِجَّةَ وَالِدَلِيلَ عَلَيْهِمْ؛ وَلَكِنَّهُمْ نَكثُوا عَهْدَ اللَّهِ فَكَانُوا مِنَ الْخَائِنِينَ.

* * *

خروج بني إسرائيل من مصر

أَفْصَحَ النَّهَارَ لِذِي عَيْنِينَ، فَتَبَيَّنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الْغِيَّ مِنَ الرَّشَادِ، وَانْحَازُوا لِرَسُولِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، يَلْتَمِسُونَ لَدَيْهِ الرَّحْمَةَ وَالْهُدَايَةَ، وَهُمْ الَّذِينَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَسَيِّمُوا سُوءَ الْعَذَابِ؛ فَعَاشُوا عَيْشَةَ الْبَلَاءِ، وَاصْطَبَرُوا عَلَى اللَّأْوَاءِ^(٣).

وَكَيفَ لَا تَتَفَتَحُ بِصَائِرِهِمْ، وَلَا تَنْفَجِرُ يَنْبَاعِ إِيمَانِهِمْ، وَقَدْ لَمَسُوا آيَةَ الْحَقِّ نَاصِعَةً مُشْرِقَةً، فَفَرَّتْ بِهَا عُيُونُهُمْ، وَاطْمَأْنَتَ إِلَى مَهَادِهَا جُنُوبُهُمْ، فَلَمْ يَحْفَلُوا بِوَعِيدِ فِرْعَوْنَ،

(١) الرجز: العذاب.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.

(٣) اللاؤاء: الضر والشدة.

ولم يأبهُوا لُزْمَجْرته وتهديده، والتمسوا الفِرَارَ من أرض مصر، طلباً للسلامة، وُبُعْداً عن القوم الظالمين!

سار بهم موسى أول الليل إلى الأرض المقدَّسة، وقد سهَّلَ اللهُ إليها طريقهم فساروا حَثِيثاً، يدفعهم الخوف، ويعصمهم الإيمان، حتى قطعوا رقعة اليباسة المصرية، وإذا بهم أمام بحر لُجِّيٍّ^(١) يقف سداً منيعاً دون غايتهم، وحائلاً دون أمنيَّتهم، فسَاوَرَهُم القلقُ، واستولى عليهم الجزعُ، وتوزَّعَ نفوسهم الرُّوعُ والفرعُ . . .

أليسوا هم المطلوبون لفرعون وجنوده؟! وهو الذي يجذُّ في السير ويمعن في الطلب حتى ليوشك أن يقترب منهم، لأنهم - على زعمه - عبيد أبقون^(٢)، وأتباع مارقون، وكان قد جَيَّشَ جيشه، وحشد خيله وَرَجَلَه، وسار وراء موسى وَمَنْ تبعه حتى صار منهم قاب^(٣) قوسين أو أدنى؟!!

هاج بنو إسرائيل، وتقطَّعتْ نفوسهم همّاً وحسرة، أليس الموتُ قد كاد يُذْرِكهم، وحباطلُ فرعون قد اقتربت لتقنصهم؟ هنا سُمِعَ صوتٌ يَجَارُ كما تنبث الهَيْعَةُ^(٤) الصاخبة وسط المفازة المترامية، فيه عُتْبٌ، وفيه لوم، وفيه استنجاد، وفيه يأس، وكان صاحبُ الصوت يُوشع بن نون، من قوم موسى.

قال: يا كليمَ الله، أين تدبيرك؟ ها قد دهمتنا غوائلُ القَدَرِ، فالبحر أمامنا والعدو وراءنا، وليس لنا من الموت محيص ولا مفر. فقال موسى: لقد أَمْرْتُ بالبحر، ولعلي أُمِرُّ الآن بما أصنع.

فسرَّتْ في نفوس القوم ساريةٌ من الأمل، ولكنه لا يلبث أن يمدَّ شعاعه، حتى تطفئه عواصفُ اليأس والقنوط، ويشيع في نفوسهم ثورة يحبسها ما تبقى في قلوبهم من رجاء، وما يعلِّلهم به نبيُّهم من فرج ورحاء؛ إذن فليستسلموا لقضاء الله، والله لا بدَّ راحمهم وعاصمهم من فَتْكَ الظالمين.

(١) اللُّجِّي: المنسوب إلى اللُّجَّة وهي معظم البحر وتردد أمواجه.

(٢) أبق: هرب فهو أبق.

(٣) القاب من القوس: ما بين المقبض وطرف القوس ويقال: بينهما قاب قوس: كناية عن القرب.

(٤) الهَيْعَةُ: الصوت المفزع.

أوحى الله إلى موسى: **أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ**، فاضربه، فانجابت دياجير^(١) الظلام... وانحسرت طاغيات اليأس، وإذا اثنا عشر طريقاً لاثني عشر سبباً^(٢)، لكل سبب طريق، وإذا الشمس والرياح يهيهما الله، فتجف هذه الأرض، وتمهد تلك السبل، وإذا القوم يسرون آمنين في رعاية الله الكبير المتعال، وإذا ربهم يؤمن رسولهم؛ إذ يقول: **﴿ فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴾**^(٣).

إنساب الأسباط يُهرعون إلى برّ الأمان والسلام، وقد قام الماء على جانبي كل طريق كالطود^(٤) العظيم، حتى عبروا سالمين.

استشرف القومُ بعيونهم، فأبصروا فرعونَ وجنوده يتأهبون ليلسلكوا في البحر مسالك بني إسرائيل التي عبروا منها، حتى يلحقوا بهم، فيزلوا بهم أشد العذاب؛ وعاد القلق والاضطراب، بعد أن ظللتهم سحابة من الأمن، وتملكهم الخوف والإشفاق، خشية أن يمتد إليهم عدوان فرعون، بعد أن يجوز البحر من حيث جازوه.

اتجهت القلوب، وتطلعت الأنظار نحو موسى حتى يكشف ربه عنهم هذا البلاء المحقق، الذي يكاد يذمهم من حيث لا يشعرون، حينئذ هم موسى ليدعوا البحر فيرجع إلى حاله، حتى يحول بينهم وبين فرعون، وليكون حاجزاً يحجز عنهم ذلك البطش الذي يلاحقهم في كل مكان وزمان.

لم يكد عزم موسى يختلج في فؤاده حتى أوحى الله إليه: أن اترك البحر ساكناً على حاله، فلا تضربه بعصاك فيعود إلى حاله، لأن الله لا يريد أن يجعل البحر حائلاً بينك وبينهم، فيرجعوا إلى ديارهم سالمين، بل سبقت كلمة الله في هؤلاء، فغرتهم المسالك التي سلكها بنو إسرائيل ومشوا فيها، فانطلق عليهم الماء فكانوا من المغرقين.

تلقت فرعون وجنوده، فإذا سبل البحر ممهدة أمامهم فيها يسرون ومنها إلى بني إسرائيل يصلون، فانتفخت أوداجهم، وأعمامهم غرورهم؛ وتاهوا في ضلال

(١) دياجير جمع ديجور: أي الظلمة.

(٢) السبط من اليهود: كالقبيلة من العرب.

(٣) سورة طه، الآية: ٧٧.

(٤) الطود: الجبل العظيم الذاهب حسوداً في الجو ويشبهه به غيره من كل مرتفع أو عظيم أو راسخ.

الصلف^(١) والإعجاب، فقال فرعون لجنوده: انظروا إلى البحر كيف انفلق طَوْعاً لأمرى، وانصيباً لإرادتي؛ حتى أُدْرِكَ هؤلاء الخارجين!!

وكأنها كانت معجزة لفرعون في نظر أصحابه الضالين، فَتَقَوَّوْا بِقُوَّتِهِ، واطْمَأَنُّوا لنصرته، ثم اندفعوا إلى مسالك البحر، وقد لجت بهم العجلة، طَلَباً لبني إسرائيل، ولم يكادوا يصلون إلى عَرْضِهِ^(٢) حتى انطبق عليهم، فأغرقهم أجمعين، فصاروا مثلاً للآخرين.

نسي فرعون علياءه ومجده، وأدرك الحقيقة التي طالما خَفِيَتْ عليه، وأبصر فإذا هو عند كليل الرأي، حقير الشأن، لا حَوْلَ له ولا قُوَّةَ، فانجابت عنه تلك السحابة القائمة المظلمة، وتسرَّب إلى قلبه شعاع من الحق المبين.

وقد بَهَّرَتْ فما تخفى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى أَحَدٍ لَا يَعْرِفُ الْقَمَرَا
في هذا الوقت العصيب آمن فرعون، فقال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو
إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٣).

لم يقبل الله محال هذا الطاغية الجبار الذي أهلك الحرث والنسل؛ بل جازاه على شر أعماله وبشر المصير.

انطبق البحر، فسُمع صوت انطباعه صاخباً شديداً، فسأل بنو إسرائيل موسى: ما هذه الضوضاء؟ فقال لهم: إن الله قد أهلك فرعون ومن معه مغرقين فعاودتهم غريزة تأصلت في نفوسهم، وباطل تمكَّن من قلوبهم، ووهم تسلط على عقولهم؛ فقالوا: يا موسى؛ إن فرعون لا يموت!! ألم تر كيف كان يلبث كذا من الأيام وكذا من الشهور، لا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه بنو الإنسان؟!

قالوا هذا، ويغشى على أفئدتهم وهم باطل، ولكن فليختلقوا القدرة والحوّل والإمكان والطول لفرعون وليؤمنوا في دعاويهم الزائفة الكاسدة؛ فهذه قدرة الله، وذلك حَوْلُ الله.

(١) صلفه صلفاً: أبغضه.

(٢) عرض البحر: وسطه.

(٣) سورة يونس، الآية: ٩٠.

أمرَ الله فألقى البحرُ جُثَّةَ فرعونَ على ساحله حتى لا يكون في مواراة البحر إياها سبيل من سبل القول لفرعون؛ فربما قالوا: إنه يعيش في عالم آخر. وربما افتروا وربما كذبوا، فليخرس الله ألسنتهم وليكتم أنفاسهم، ولينبذ البحرُ هذا الجسد المحطم وذلك السلطان المهتم.

نظر بنوا إسرائيل دهشين ذاهلين مصرع هؤلاء الجبابرة العاتين. إذ أغرق الله فرعون وجنوده، ونجى فرعون ببدنه، ليكون آية لمن خلفه، آية ناطقة على تلك القدرة المعجزة، وذلك الإنعام الذي تفضل به رب العالمين.

* * *

مواعدة موسى

استقرت عصا التسيار بموسى ومن معه، فأقاموا حيث واثاه المقام، ومن ثم احتاجوا إلى منهاج يسرون عليه، وشرع يركنون إليه، فسأل موسى ربه كتاباً به يهتدون، وإلى حكمه يرجعون، فيه من الأمر ما يأتون، ومن النهي ما يذرون، حتى لا تتردى بهم أيام الزمان، ولا يخبطون إلى أمور المعاش والمعاد خبط عشواء.

أمر الله موسى أن يتطهر، وأن يصوم ثلاثين يوماً، ثم يأتي إلى طور سيناء حتى يكلمه ربه، فيتلقى أمره في كتاب يكون لهم المرجع والمآب.

اختار موسى من قومه سبعين رجلاً، ثم ذهب لميقات^(١) ربه، ولكنه تعجل فسبقهم إلى الطور، فوصل بعد ثلاثين ليلة، وقد تأخر عنه المختارون من قومه، حينئذ سئل عن الأمر الذي بعثه على الإسراع والعجلة، فقال: هم أولاء على أثري، وعجلت إليك رب لترضى. فأمر أن يتم ميقات ربه أربعين ليلة.

وكان موسى قد ترك قومه، واستخلف عليهم أخاه خارون وزيراً، يقوم على شؤونهم، ويصلح أمورهم، ويرعى أحوالهم، حتى يعود إليهم يحمل الأمانة الغالية، ويسعد بذلك الشرف الموعود.

(١) الميقات: الوقت المضروب للفعل. و: الموعد الذي جعل له وقت. و: الموضع الذي جعل للشيء يفعل عنده.

سار موسى إلى طور سيناء، فكلّمه ربّه وناجاه، وقربّه وأدناه، حتى سرّت في نفسه روعه وهزّة، أجبّت في فؤاده نار الشوق، وألهبت أوار^(١) الهيام واللهفة، فقال: رَبِّ أَرِنِي أَنْظِرْ إِلَيْكَ؛ وَلِمَ لَا يَخْتَلِجُ فِي فؤاد موسى خاطرٌ يدفعه إلى أن يطلب رؤية ربه، وقد نعم بتلقي رسالته، وسعدّ بالقرب من رعايته، ونال ما لم يتلّه قبله أحد من العالمين، أليس المأربُ شريفاً، والقصد كريماً؟!

وموسى نفسه هو الرسول الذي طالبه قومه، فقالوا: أَرْنَا اللَّهَ جَهْرَةً؛ فلماذا لا يسألُ ربّه ذلك ليرى بنفسه أمر الله في ذلك المطلب المرغوب، وليكون حكم الله حجةً قاطعةً لهؤلاء الرّاجين المُلحفين^(٢)؟

قال ربّه: لَنْ تَرَانِي، ولكن انظرْ إلى الجبل؛ فإن استقر مكانه فسوف تراني. تَلَفَّتَ موسى فإذا الجبل قد دُكَّ، وغارَ في الأرض وساخ، فارتاع لهول ذلك الخطب الجلل والأمر العظيم، فخر صَعِقاً، فلطف الله به وشمله برحمته، فأفاق من صَعَقته، وقام يسبحُ الله الكبير المتعال.

أخذ موسى الألواح، وفيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل، مَوْعظةً وتفصيلاً لكل شيء، فقال: يَا رَبِّ لَقَدْ أَكْرَمْتَنِي بِكَرَامَةٍ لَمْ تُكْرِمْ بِهَا أَحَدًا قَبْلِي فَقَالَ يَا مُوسَى، إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي، فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

وانتظر بنو إسرائيل أن يوافيهم موسى بعد ثلاثين يوماً من بدء غيبته، ولكنه - على غير علم منه - طال غيابُه حتى صار أربعين يوماً، فأجالوا الرأي بينهم وقالوا: إِنْ مُوسَى أَخْلَفْنَا وَعَدَهُ، وَنَقَضَ عَهْدَهُ، وَتَرَكْنَا فِي جَهْلٍ مَقِيمٍ وَلَيْلٍ بَهِيمٍ، وَمَا أَجْدَرْنَا بِمَنْ يَنْبِرُ لَنَا الْمَسَالِكَ، وَيُرْشِدُنَا إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ!!

عندئذٍ تحركت في نفس السامريّ نزوة الشرِّ والفساد، فاغتنمها فرصةً، وقال لهم: عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لَكُمْ إِلَهًا، فَلَيْسَ مُوسَى بِرَاجِعٍ إِلَيْكُمْ، لِأَنَّهُ خَرَجَ يَنْشُدُ إِلَيْكُمْ فَضَلَّ الطَّرِيقَ، فَأَبْطَأَ عَلَيْكُمْ وَأَخْلَفَ الْمِيعَادَ!!

قال الشيطان قوله هذا بعد أن استشفّ ما في نفوس القوم من خورٍ وانحلال أليسا

(١) الأوار: الحر.

(٢) ألحف: الح.

هم الذين مالت قبل نفوسهم إلى الكُفر، وقد مرّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: يا موسى؛ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة؟!

اغتنم السامريُّ هذه الجهالة الجهلاء، وتلك الضلالة العمياء، وأخذ حليّاً، ثم احتفر حفرة، وقذفها فيها، ثم أوقد ناراً، وصنع منها عجلًا جسداً له خوار، فأصبح فتنةً بين القوم، أظهر منهم الكافر، وأبانت عمّن قوي إيمانه واستيقن، ومن ضعف إيمانه وناقض.

فُتنَ بنو إسرائيل بهذا العجل وعبدوه، فتقطعت نفس هارونَ أسيّ وحرزناً، وقال لهم: ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴿١٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿١١﴾﴾^(١).

فأقام هارون مع البقية الثابتين على وفائهم، المتمسكين بإيمانهم، وخشي أن يحارب الضالين الخارجين، حذراً من التحزب، وخوفاً من الفتنة والثورة.

استشعر موسى من ربه هذا الأمر، إذ قال: يا موسى، إنّا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامريُّ. فلما أتمّ ميقات ربه، وسار نحو قومه، وسمع على بُعد لغطاً وضجيجاً، أدرك سرّ الأمر، وحقيقة الحال، حيث هم حول العجل يرقصون ويطربون، فتمسكته نوبة من الغيظ والثورة، فألقى ما بيده من الألواح ثم دلف نحو هارون، وأخذ برأسه يجزّه إليه قائلاً: ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبع طريقي فيهم، فتردّ شاردهم وتحارب مُفسدهم، حتى تنطفئ هذه النار المتأججة بالبغي والكفران؟!

فتساقطت نفس هارون همّاً وحسرة، وأقبل على أخيه يستلينه ويسترحمه، ويهديء حدة نفسه وثورة غضبه، وقال: يا بن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، فإن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني، فلا تُشمت بي الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الظالمين. لقد خشيتُ أيها الأخ الكريم إن حاربتهم أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي.

عند ذلك سكّت عن موسى الغضب، وأخذ يعالج حالهم بحسن الرأي والحزم فالتفت إلى منبع الفتنة، ورأس البدعة، وداعية الضلالة، وقال: ما خطبك يا سامري؟ فقال

السامري: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾^(١).

ثم أقبل موسى على قومه، فقال: يا قوم، ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً، أفعال عليكم العهد، أم أردتم أن يحلَّ عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي؟ قالوا: ما أخلفنا موعداً بملكنا، ولكننا حملنا أوزاراً^(٢) من زينة القوم، فصورها لنا السامري، وأخرج لنا عجلًا جسداً له خوار، فأضلنا عن الطريق المستقيم.

ثم ندّموا على سقطتهم، واستغفروا ربهم، فقالوا: لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكوننَّ من الخاسرين، فقال لهم موسى: إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل قالوا: فأبي شيء نصنع؟ فقال لهم: توبوا إلى بارئكم، فسألوه أن يبين لهم طريق التوبة وسبيل المغفرة.

فقال موسى: عليكم بقتل أنفسكم، اكسروا حديتها، واكبتوا شهوتها، وطهروها من الشر والإثم، وجردوها عن كل مشتهى مرغوب، وأقصوها عن كل مرزجوى مطلوب، حتى يصغر شأن النفس الآثمة، ويهون خطبها، ويحقر أمرها، فروضوا أرواحهم، وهذبوا نفوسهم، وأقبلوا على نبيهم، فتاب الله عليهم إنه هو التواب الرحيم.

أما السامري الذي أشاع تلك الضلالة المنكرة، فإن الله عاقبه في دنياه بأن أمر بني إسرائيل ألا يخالطوه، ولا يقربوه، فصار وحشياً، لا يألف، ولا يؤلف، ولا يدنو من الناس، ولا يمس أحداً منهم، وإن له لموعداً لن يخلفه يوم القيامة، يوم يساق إلى النار آثماً، ليعذب بما جنت يده، وبش مصير الظالمين.

وأما عجله فقد أحرقه موسى وألقاه في اليم^(٣)، وبذلك انجابت غيابة هذه الجريمة الشنعاء.

(١) سورة طه، الآية: ٩٦.

(٢) أوزار: أثقال.

(٣) اليم: البحر.

التيه

لم يكن على عهد بني إسرائيل قومٌ حباهم الله الخير، وأفاض عليهم النعمة، وآثرهم بالبركات مثل هؤلاء الأقسام، نجاهم الله من آل فرعون بعد أن ساموهم^(١) العذاب دهرًا! ثم عاد فأهلك فرعون على أيديهم، وبين أسماعهم وأبصارهم، ثم جعلهم بعد ذلك أحرارًا، بعد أن كانوا عبيدًا أذلاء، وجعل فيهم عددًا من الأنبياء يرشدونهم وقد كانوا ضلّالًا جهلاء، وفجر لهم الصخر وأنزل عليهم المَنَّ والسَّلْوَى، وآتاهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين.

وإتماماً لنعمة الله عليهم، ورغبةً منه - سبحانه - في الإحسان إليهم، أوحى إلى موسى أن يقودهم إلى الأرض المقدسة من بلاد الشام، وهي أرضُ الميعاد، التي وَعَدَ اللهُ إبراهيم الخليل أن يجعلها ملكاً للصالحين من ذُرِّيَّتِهِ والقائمين على شريعته.

ولكن بني إسرائيل كانوا - بما تَعَاوَرَ^(٢) عليهم من ظلم الفراعنة، وترادف عليهم من جور الحكام - قد جُدِعَتْ أنوفهم، وَذَلَّتْ جباههم على خُنُوعٍ - وأعطوا المقادة على خُضُوعٍ، حتى هان عليهم الهوان، وَحُبِّبَ إليهم الضعف والاستسلام...

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لِيَجْرَحَ بِمَيْتٍ إِيْلَامٌ

فلم يكادوا يسمعون كلمة الغَزْوِ، أو يكلفون دخول «أريحاء»^(٣) ليخرجوا منها الحيثيين والكنعانيين، ويتخذوها وطنًا كثير الخيرات، وافر البركات، حتى قالوا لموسى - جُبْنًا وضعفًا، واستخذاءً واستسلامًا - ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذُرُكَ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾^(٤). وكانهم طمِعُوا أن يخرج القوم منها بما أَلْفُوا من المعجزات، وخوارق العادات، ثم يدخلوا موفورين لم يُكَلِّمْ^(٥) أحد منهم في سبيل الله بكلم، ولم يُصَبَّ بجرح، شأن الضعيف العاجز والخائر الجبان!

(١) سام الشيء: لزمه ولم يبرح عنه.

(٢) عاور فلاناً الشيء: فعل به مثل ما فعل به صاحبه.

(٣) أريحاء: مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن (معجم البلدان: ١/٦٥).

(٤) سورة المائدة، الآية: ٢٢.

(٥) كلمه كلاً: جرحه.

ولكنَّ رجلين كانا ممن طبعهم الله على الإيمان، وفطر نفوسهم على الطاعة والإذعان، لم يخطبا في حبل أفرامهم، ولم يجريا في الحديث على غرارهم؛ فتوجَّها إلى قومهم ناصحين، وقاما فيهم مرشدين ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٢٣) (١).

ولكنهم عادوا إلى حديث جبنهم، وإعلان خوفهم، وزادوا على ذلك الفحَّة والتمرد، والغباء والتبلد، وقالوا لموسى قولاً يُذهب صبر الحليم، ويثير وجيع الجرح الأليم، قالوا: ﴿يَسْأَلُونَ إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَتَلِدُونَ﴾ (٢٤) (٢).

وعند ذلك تلفت موسى فلم يجد من يشق بمعرفته، ويعتمد على نصرته، إلا أخاه هارون، وهما وحيدان، في أضعف جد، وأنكد أتباع، وأمامهما عدو قوي المراس، كثير الجنود، فتوجه إلى الله قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٥) (٣).

فأوحى الله إليه: أن دَعهم يتيهون في هذه البيداء، يضرِبون في مجاهلها، ويخبطون في نواحيها أربعين عاماً، حتى يَفنى كبراؤهم، ويهلك رؤساؤهم، ويظهر بعدهم جيلٌ عزيز الجانب مَنِيعُ الساحة، وحينئذٍ يعودون إلى الغزو ويركبون متن الجهاد.

البقرة

تقدم بالشيخ تتابع الأيام، وأحسَّ بدنو الأجل، وكان عبداً صالحاً لا تفتنه زخارف الحياة عن الثقة والرجاء في الله، ولم يُلْهه التكاثر في المال والبنين، بل كان لا يملك سوى بقرة يأتي بها إلى الغيضة (٤)، ثم يتوجه إلى بارئه بقلب خالص، ونفس ثابتة، فيقول: اللهم إني أستودعتكها لابني حتى يكبر، وما زال الرجل يترقرق في صدره هذا

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٢٥.

(٤) الغيضة: الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.

الأمل القوي بنور الله حتى مات وبقيت البقرة لليتيم، وهي عَرَضٌ من العُرُوض لا تغني شيئاً، إلا أن رحمة الله أبقي وأعز.

واستمرَّ اليتيم يرفعى البقرة، يحدوه، شُعاع من الأمل ورثه، من الصالحات الباقيات لأبيه.

وقد كان من وجوه بني إسرائيل شَيْخٌ مُوسِرٌ مَدَّ اللهُ في أسباب دنياه، وبسط له نعمة الغنى، ورزقه ابناً وحيداً تنحدرُ إليه بعد موت أبيه كلُّ هذه الثروة الواسعة، ولكن بني عمومته نفسوا^(١) عليه هذا المال؛ إذ لا يجدون من قليل ولا كثير، فتألبوا عليه فقتلوه، ثم طالبوا قوماً آخرين بدمه، فهبَّتْ عاصفة هوجاء، وثارَت ريح نكبَاء، فلم يجد القوم ملجأً أماهم إلا باب موسى عليه السلام، يتحاكمون إليه، ويلتمسون عنده إيضاح الخفاء.

سأل موسى ربه، فأمرهم أن يذبحوا بقرة، ويضربوه بلسانها فيحيا، فيخبر بقاتله، فضلت أحلامهم، وعزبت عن عقولهم قوةُ الله وقدرته، وظنوا أن موسى يهزأ بهم، ويسفه أحلامهم؛ فراجعوه، فقال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين.

ولو أنهم ذبحوا أيَّ بقرة من يوم أن أمرهم رسولهم لكانت كافيةً، ولكنهم تمادوا في إلحافهم ولجاجهم، فشدد الله عليهم، وجعل البقرة مسومةً بعلامات خفي عليهم أمرها، فتأهوا في بيءاء اللجاج.

ولقد كان هذا أمراً خارقاً، وحقيقة تقصّر عن صدقها عقولهم، فسألوا ضالين: ما هذه البقرة؟ أكما عهدنا هذا الجنس من الحيوان، أم هي خلق آخر تفرّد بمزية، واختص بإعجاز؟ فأوضح الله سيّلتهم، وبيّن أنها بقرة لا مُسنّة ولا فتية، بل هي عوان^(٢) بين ذلك، فليفعلوا ما يؤمرون.

ولكنهم - وهم من البشر - قالوا: ادع لنا ربك يبيّن لنا ما لونها؟ قال: إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسرُّ الناظرين، فازدادت حيرتهم، وضلت عقولهم، فلم تستطع أن تسمو إلى هذا الإلهام الإلهي العجيب، وكأنهم لم يعوا شيئاً، فكزروا سؤالهم الأوّل معتذرين بأن البقر تشابه عليهم وهم يرجون بمشيئة الله الهدى والرّشاد.

(١) نَسَسَ بالشيء على فلان: حسده عليه ولم يره أهلاً له.

(٢) العوان: المتوسطة في العمر بين الصغر والكبر.

فَأَجِيبُوا بِأَنْهَا بَقْرَةٌ غَيْرَ مُعَدَّةٍ لِسَقْيٍ وَلَا لِحَرْثٍ، سَلِمَتْ مِنَ الْعِيُوبِ، وَلَا شَيْءٌ^(١) فِيهَا. فَاهْتَدُوا إِلَيْهَا بَعْدَ لِأَيِّ عِنْدَ ذَلِكَ الْيَتِيمِ الَّذِي بَارَكَ اللَّهُ فِي بَقْرَتِهِ، فَاشْتَرَوْهَا مِنْهُ بِمَالٍ وَافِرٍ، فَذَبَحُوهَا بَعْدَ حِيرَةٍ طَوِيلَةٍ وَتَرَدَّدَ كَثِيرًا.

* * *

موسى والخضر

وقف موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل، مذكراً لهم بأيام الله بعبارات تُثير الأسى وتبعث الشئون، ففاضت العيون، ورقت القلوب.

ولما انتهى من قوله تعلق بأهدابه رجل، وقال: أي رسول الله، هل في الأرض مَنْ هو أَعْلَمُ منك؟ قال: لا. أَلَيْسَ هو كبير أنبياء بني إسرائيل وقاهر فرعون؟ أو ليس هو صاحب اليد والعصا، بعصاه انفلق البحر؟ أليس الله قد شَرَفَهُ بِالْتَّوْرَةِ، وَكَلَّمَهُ جَهْرَةً وَعِيَانًا، فَأَيُّ غَايَةٍ أُبْعَدُ مِنْ هَذِهِ الْغَايَةِ؟ وَأَيُّ شَرَفٍ أَسْمَى مِنْ هَذَا الشَّرَفِ؟

ولكن الله أوحى إليه أن العلم أعظم من أن يحويه رجل، أو ينفرد به رسول، وأن في الأرض من خَصَّه اللهُ بِعِلْمٍ أَوْفَرَ مِنْ عِلْمِهِ، وَنَصِيبٍ مِنَ الْإِلْهَامِ أَوْفَرَ مِنْ نَصِيبِهِ، قَالَ: يَا رَبِّ، أَيْنَ مَكَانُهُ لَعَلِّي أَلْقَاهُ، فَأَصِيبُ قِبْسًا مِنْ عِلْمِهِ، أَوْ فَيْضًا مِنْ إلهَامِهِ وَيَقِينُهُ؟ قَالَ: تَلْقَاهُ بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ^(٢). قَالَ: اجْعَلْ لِي عِلْمًا يَدُلُّنِي عَلَيْهِ، وَآيَةً تَرشُدُنِي إِلَيْهِ، قَالَ: آيَةُ ذَلِكَ أَنْ تَأْخُذَ حَوْتًا^(٣) فِي مِكَتَلٍ، فَحَيْثُ فَقَدْتَ الْحَوْتَ فَقَدْ وَجَدْتَ الرَّجُلَ.

فَأَخَذَ مُوسَى لِلْأَمْرِ عُدَّتَهُ، وَاصْطَحَبَ فَتَاهُ، وَحَمَلَهُ الْمِكَتَلَ، وَوَضَعَ الْحَوْتَ فِيهِ كَمَا أَوْحَى إِلَيْهِ رَبُّهُ، وَظَلَّ سَائِرًا وَقَبْلَتَهُ الرَّجُلَ، وَأَخَذَ عَلَى نَفْسِهِ عَهْدًا أَنَّهُ سَيُظَلُّ مَجِدًّا فِي السَّيْرِ مُمَعِنًا فِي الطَّلَبِ، حَتَّى يَبْلُغَ هَذَا الْمَكَانَ، وَلَوْ مَضَتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ، أَوْ تَعَاقَبَتِ السَّنُونَ، ثُمَّ أَدْنَى الْفَتَى أَنْ يَخْبِرَهُ إِذَا فَقَدَ الْحَوْتَ.

ولما بلغا مَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، فِي الْمَكَانِ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَلْتَقِيَ فِيهِ نَبِيَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ

(١) لا شية فيها: أي ليس فيها لون غير لونها.

(٢) مجمع البحرين: ملتقى بحر الروم وبحر فارس مما يلي المشرق أي المكان الجامع لذلك.

(٣) الحوت: السمكة، صغيرة أو كبيرة.

بعبد الصالح، أخذت موسى سنّة فنام، وفي أثناء نومه هضبت^(١) السماء، فابتلّ الحوت وانتفض، وسرت إليه الحياة، ثم قفز إلى الماء.

واستيقظ موسى - عليه السلام - ونادى فتاه: هيّا نواصل السير والشرى، وأنسى الشيطانُ الفتى ما كان من أمر الحوت، وتابعاً المسير إلى أن أدركها الأين^(٢) وأحسًا الجوع، فقال موسى لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.

ولما همّ أن يأخذ الغداء من المِكتل تذكّر ما كان من أمر الحوت وذهابه في الماء، فقال: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة، وحين غشاك النعاس، فإن الحوت قد اتخذ سبيله إلى الماء، ونسيتُ أن أذكرك، وما أنساني إلا الشيطان.

وحيثُذِ لَاحَتْ لموسى شارةُ الظفر، ووجد ريح الرجل، فقال: ذلك ما كنا نبغيه ونشده، هيّا بنا نعود إلى هذا المكان فإننا سنصادف رجلاً، ورجعا يَقُوفَانِ^(٣) الأثر ويتعرفان الطريق.

ولما وصلا إلى حيث فقدوا الحوتَ وجدا رجلاً نحيل الجسم، غائر العينين، عليه دلائل النبوة، وفي وجهه فيضٌ من السماحة والتقوى، قد سُجِّي بثوبه، وجعل طرفه تحت رجليه، وطرفه الآخر تحت رأسه. فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرضي من سلام! من أنت؟ قال: أنا موسى! قال: موسى نبيُّ بني إسرائيل؟ قال: نعم، ومن أعلمك بهذا! قال: الذي بعثك إليّ. فعلم موسى أنه ضالته التي ينشدها، وبُغِيَتْه التي جهد في سبيلها، فتلطّف في القول، وتجمّل بأحسن ما وهبه الله من أدب الحديث وفضل التواضع، وقال: هل تأذن أيها العبد الصالح لرجل جاهد في سبيل لقائك، ولقِي العناء حتى أصاب موضعك، أن تفيض عليه من علمك، وأن تقبسه شيئاً من هديك، على أن أتبعك، وأسير في ظلك، وألتزم أمرك ونهيك!؟

قال له الخضر: إنك لن تستطيع معي صبراً، ولو أنك صحبتني فإنك ستري ظواهر عجيبة وأموراً غريبة، وسترى أموراً منكراً في ظاهرها، وإن كانت حقاً في باطنها، ولكنك

(١) هضبت السماء: دام مطرها أياماً لا يقلع.

(٢) الأين: الإعياء والتعب.

(٣) قاف أثره: تبعه.

بما ركب الله في البشر من إلف القيل والقال والجنوح إلى البحث والجدال، سوف لا تسكت عن الاعتراض، ولا تتورع عن الامتعاظ، وكيف تصبر على ما يخرج عن مألوفك، ويتجاوز معروفك؟ فقال له موسى، وكان حريصاً على العلم، تَوَاقاً إلى المعرفة ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾^(١).

قال الخضر: إن صحبتي أخذ عليك عهداً وشرطاً، أن تأخذ عُدتك من الحزم والصبر، ونصيبتك من الجلد وضبط النفس؛ فلا تبتدزني بسؤال، ولا تُثر أمامي أي اعتراض، حتى ينقضي الشرط وتنتهي الرحلة، وإني بعدها سأتي على ما في نفسك، وأشفي ما بصدرك.

فقبل موسى الشرط، وقيد نفسه بذلك العهد، وساراً على الساحل، حتى لمحا سفينة في البحر، فطلبا من أهلها حملهما إلى حيث يذهبون. ولما قرءوا السماحة في وجههما، ورأوا بريق النبوة يلمع في عيونهما، حملوهما من غير نول^(٢)، وبالغوا في إكرامهما، والحفاوة بهما.

وبينما هما في السفينة، وعلى حين غفلة من أهلها، أخذ الخضر لوحين من خشب السفينة فخلعها، فهال موسى - وهو الرسول الكريم الذي أُرسل لهداية الناس ورد عادية الظلم عنهم - أن يُقابل صنيعهم بالإساءة، وجميلهم بالنكران، وخشي أن يصيبهم غرق أو هلاك، فنسي عهده وشرطه، وصاح: أتعمد إلى قوم أكرموا وفادتنا، وأحسنوا لقاءنا، فتخرق سفينتهم وتحاول إغراقهم؟! ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾^(٣) (٤).

فالتفت الخضر إليه، وما زاد على أن ذكره بشرطه، وما قدره من قبل أنه سوف لا يصبر على سؤال، ولا يسكت على مراء، وقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٥) وحينئذ أدرك موسى ما وقع فيه من خطأ، وما تورط فيه من نسيان؛ فاعتذر إليه واستغفره

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٩.

(٢) نول: أجرة.

(٣) إمراً: أي عظيماً منكرًا.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٧١.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٧٢.

من نسيانه، وقال: لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ، ولا تحرمني شرفَ الصحبة، وفضلَ المرافقة، وسأكون بعد الآن كما شرطت.

وغادرا السفينة، وتابعا السير، فوجدا غلاماً وضيئاً يلعب مع لِدَاتِهِ وَأَقْرَانِهِ، فأخذه الخضر بعيداً ثم أضجعه وقتله! ففرغ موسى من هذا القتل، وكَبُرَ عنده ذلك الإثم؛ إذ رأى غلاماً يافعاً، قد يكون وحيد أهله، ورجاء والديه، يُقتل في غير قَوَدٍ^(١)، ويُسفك دمه من غير إثم، على يد رَبَّائِي كَرِيمٍ، وإمام من أئمة الدين! فتحلل من عهده، وأطلق نفسه من ميثاقه، وقال: ما هذا المنكر الذي تأتبه، والإثم الذي تركبه؟ ﴿أَفَلَنْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾^(٢).

فالتفت إليه الخضر، ولم يزد على أن ذكره بعهده، وما كان من شرطه، وما قدره مما سيكون من سؤاله عما لا يعرف، وامتعاضه مما لا يَأْلَفُ، قائلاً: ﴿الَّذِي أَقْبَلَ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٣).

وهنا استحيا موسى، وأدرك أنه قد أثقل على هذا العبد الصالح، وكان خليقاً به أن يُدْرِعَ بالصبر، وَيُتَمَسِكَ لِسَانَهُ عَنِ الْجَدَلِ، حتى يُفْصِحَ له بعد عما خفي من أمره، وما تشابه عليه من علمه، وخشي إن تمادى أن يقع منه على مَوْجِدَةٍ أو كراهية، فاتخذ لنفسه شرطاً: ألا يعجل بسؤال بعد الآن، وإلا فإن رفيقه في حلٍّ من مفارقتة، وقطع صحبته، وقال: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾^(٤).

وانطلقا على هذا الشرط حتى أدركهما الطوى^(٥)، ونال منهما النَّصَبُ وَالْكَلال، وصادفا قرية في طريقهما، فدخلاها طمعاً في زادٍ يعينهما على السير، وَيُتَمَسِكُهُمَا عَلَى الْجُوعِ، ولكن أهلها - بما كانوا عليه من لؤم النحيزة^(٦) وكزازة النفس - أبوا أن يضيّقوهما، وردوهما رداً غير جميل، فلم يجدا عندهم مأوى ولا طعاماً، وخرجاً جائعين ساخطين.

(١) القود: القصاص.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٤.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٧٥.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٧٦.

(٥) الطوى: الجوع.

(٦) النحيزة: الطبيعة.

وقبل أن يجاوزا القرية وجداً جداراً يتداعى للسقوط، فأقامه الخضر، وأصلح من شأنه، فقال موسى: عجباً! أتجازي هؤلاء القوم اللؤماء الذين أساءوا اللقاء، بهذا الإحسان؟! لو شئت لاتخذت على عملك هذا أجراً نسدُ به حاجتنا ونحفظ به على الحياة أنفسنا!

قال الخضر، وقد آمن بأن موسى سوف لا يستطيع بعد الآن صبراً: ﴿ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (١).

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، فيصيرون منها رزقاً، يعينهم على الكسب، ويقطعون به مفازة الحياة، ولكن ملكاً ظالماً كان يتبع كل سفينة سالحة، يأخذها من أهلها عنوةً، ويستولي عليها غضباً؛ فأردت أن أعييها، رفقاً بهم ورحمة لهم، حتى إذا شهدها ملكهم تركها لعييها، فهذا عمل إن كان ظاهره الفسادُ ففي باطنه الرحمة، وإن كنت قد حسبتُه نكراً فإنما هو حفظٌ للمساكين وإبقاءً على حياة هؤلاء البائسين.

وأما الغلام فكان وقاحاً مَبَغُضاً من الناس، وكان أبواه مؤمنين، وبما فطر الله الآباء على حب الأبناء، والدفاع عنهم بالحق وبالباطل، خشيت أن يحملهما هذا على التعصب له والميل إلى طريقته، فينتهيا إلى الطغيان والكفر؛ فقتلته حفظاً لدينهما، ورجاء من الله أن يرزقهما خيراً منه زكاةً وأقرب رُحماً.

وأما الجدار فقد علمت من الله أن تحته كنزاً ليتيمين صغيرين، تحدرًا من رجل صالح كريم؛ فأردت أن أحمي هذا الجدار، حتى يشتد أزهرهما، ويَقْوَى على الحياة أمرهما؛ فيستخرجا كنزهما مالاً حلالاً طيباً لهما.

وما فعلت هذا بعلمي ولا برأيي، ولكنه وَخِي من الله وَهَدِي منه ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (٢).

* * *

(١) سورة: الكهف، الآية: ٧٨.

(٢) سورة: الكهف، الآية: ٨٢.